اصبحت المدينة الآن على سعة كبيرة ، فهي تضم مائة الف من السكان يسكنون في اربعين الف منزل . وكانت ترتفع فوق سور الكريملين ذي الفتحات ابراج بيض ، وتبدو من خلفه قباب الكاتدرائيات المذهبة والاسقف المسطحة لمنازل الامراء والقصور . والى أسفل هذه المدينة ومن حولها كانت تمتد موسكو الخشبية حيث يسكن الشعب وحيث يمتد محيطها غير المحصن الى ما لا يقل عن عشرين كيلو متراً . وكان يخترقها شوارع عريضة بعضها مبلط بالاخشاب وبعضها الآخر يبدو في معظمه في فصل الصيف وكأنه انهار من الوحل . ويمكن للمرء أن يرى فيها سوقاً مفتوحة ومخازن وحوالي ستين كنيسة .

وعلى الرغم من النزيف الذي جعل ثرواتها تذهب خلال قرنين من الزمان الى القبيلة الذهبية فإن موسكو غدت في رغد من العيش . فقد كان يوجد بين اسوار الكريملين كنوز ضخمة من الذهب والاحجار الكريمة وضعت بخاصة تحت حماية الكاتدرائية كما كانت توجد صور رائعة الإعجاز . وكانت السجف ذات النسيج الذهبي تزين كل منازل النبلاء . و ثياب الدوق الكبير الذي لم يصبح قيصراً بعد كانت بالغة الجمال ، وبلاط موسكو كان يتمتع بأبهة بربرية ما لبثت ان اغتنت وأصبحت أكثر غموضاً بما ادخل عليها من ترف بيزنطة واحتفالات الكنيسة الأرثوذكسية .

وكان النبلاء يأكلون في صحاف دقيقة من الذهب ويشربون بأكواب من المعدن نفسه . وفي داخل الكريملين في القصور والكاتدرائيات كوّم من الذهب اكثر مما يوجد منه نسبياً في اي مكان آخر ، فحب الذهب ولون الذهب الذي يبدو في اجلى مظاهره في الإيقونات كانا يميزان روسيا الحديثة التي عرفت من التتر قيمة الذهب المعبر عنها بالدم .

بعد تحررها من نير التتر ولدت روسيا الحديثة . وكانت تمتد من الفولغا الشمالي الى الدنيبر ومن المحيط المتجمد الشمالي الى الدون . كانت روسيا بدون سيبريا وبدون سهوب الفولغا ولا القوقاز والقرم